شعر الرد الفلسطيني في الارض المحتلة : « اسطورة جديدة »

أحبك . كوني صليبي
وكوني ، كما شئت برج حمام
اذا ذوبتني يداك .

(محمود درويش من « اغنية حب على الصليب » .)

من الملاحظ ان هذه الاسطورة مركزة حول تجربة الصليب ، كما يستدل من المراجع العديدة ، الظاهرة او المستترة ، والمأخوذة عن الكتاب المقدس . فقراءة كل قصيدة تقنعنا بهذا الامر . ذلك ان الكتاب المقدس يلعب دورا متميزا في التعبير عن هذه الاسطورة المعمدانية الاساسية وفي الاحتفال بها ، خاصة في « الارض المقدسة » . نحن نعتقد بأن الفلسطينيين المنفيين داخل وطنهم المحتل كانوا قادرين على بث الكلام فيها من جديد . انه الكلام المخيف لانه كلام نبي . على كل حال فان محمود درويش ، الفلسطيني الماركسي المسلم المولد ، قد اختار رمزي الصليب والمصلوب للتعبير عن ايمانه بحياته وبحياة شعبه : نجد هنا عنصرا من العناصر الاساسية المكونة للاسطورة الفاعلة . ان المحتوى النهائي هو عودة فلسطين المستقبل ، فلسطين الجديدة تماما . الاخ الصغير لم يعد معه اذن بالسفر ، فهو يذهب لرمي الاقذار وينقل صناديق السلاح بعربة . لم يكن دخوله السجن سوى حادث عابر . لقد اصبح نبيا اكبر من أبيه المنحط ، بعد أن كان طفلا في مخيمات الصليب الاحمر : انه مغروس في لحم اجداده . انه يخلق وطنا ومستقبلا . واذا بالمغني ينشد مأخوذا :

« انني ابصر في عينيك ميلاد الغد
وجوادا غاص في لحم ابي . »

ان اولاد المغني واولاد جيله هم الذين سيحتفلون بالعيد : سوف يعيشون . ونرى فلسطين التي تنضح شبابا تلتقي بالمغني ، وكأنه اللقاء الاول بينهما ، قبل ان يموت هذا الاخير من فرط سعادته :

« عيناك ، يا معبودتي ، عودة
من موتنا الضائع تحت الحصار
كأنني القاك هذا المساء
للمرة الاولى ... »

ان الاسطورة لا تناقش بل يحتفل بها . انها بنية للعالم يجد فيها كل انسان مصيره ومكانه . انها ليست مزيفة ابدا ، اكثر مما يمكن لانسان ما ان يكون مزيفا . كلاهما موجود . الفارق بينهما هو ان باستطاعتك اعدام شخص ما بسهولة ، لكن القضاء على اسطورة هو أمر شاق ، فالاسطورة تحيا وتتغذى من نواقصها ذاتها ، خاصة اذا كانت هذه النواقص فادحة . ذلك ان المغني قد قال كل شيء منذ اللحظة التي ارتكز فيها على تجربة الصليب ، كما هي الحالة هنا . لقد عرف الشعراء الفلسطينيون في اسرائيل كيف يعبرون عن مأساتهم على هذا المستوى من العمق .

ولكن من أين نشأ هذا السرد الاسطوري ؟

ان الخلق الثقافي العربي في اسرائيل له جذوره العميقة وهو يخضع لتأثيرات اجنبية واضحة . على ان أهم مصدرين خاصين يجب اخذهما بعين الاعتبار هما : الكتاب المقدس وتجربة الصليب . وقد سبق ورأينا انهما الموضوع الاساسي في شعر درويش . لكن سميح القاسم يبرز في ديوانه « دمي على كفي » آيات عديدة مقتبسة من انجيل يوحنا ، تأتي في مواضعها تماما : « ان لم تقع حبة الحنطة في الارض وتمت فهي تبقى وحدها » ، و« ليس لاحد حب اعظم من هذا أن يضع احد نفسه لاجل احبائه » . على انه ليس من المؤكد ان كان هذا التأثر بالكتاب المقدس تأثرا واعيا . لكن التجربتين